

مول كتاب :

مستقبل الثقافة في مصر

نظرة انتقادية عامة

للأستاذ أبي خلدون ساطع الحصرى بك

—><—

« مستقبل الثقافة في مصر »

هذا العنوان الذى عنوان به الأستاذ الدكتور طه حسين الكتاب الذى نشره قبل بضعة أشهر فى مجلدين ... ذكرنى بعنوان « للطارات » التى نشرها « المعهد الأسمى للتعاون الفكرى » التابع لعصبة الأمم بعد الاجتماع الذى عقده فى مدريد سنة ١٩٣٣ : مستقبل الثقافة

وعندما أسجل هذه المشابهة فى مستهل مقالى هذا ، أرى من الواجب على أن أصرح — فى الوقت نفسه — بأن المشابهة بين الكتائين لا تعدى حدود العنوان . فإذا كان من البديهي أن المؤلف الفاضل اقتبس عنوان كتابه من الطارات المذكورة ، فمن الواضح أيضاً أنه لم يستلهم شيئاً من موضوعاتها أو من مناحى التفكير المنجلية فيها ...

وأما كيفية تأليف الكتاب ، فالمؤلف يشرحها لنا بكل وضوح ، فى المقدمة القصيرة التى صدرت بها :

إن « فوز مصر بجزء عظيم من أملها فى تحقيق استقلالها الخارجى وسيادتها الداخلية » حمل « المفكرين المصريين » على أن يشعروا بأن « مصر تبدأ عهداً جديداً من حياتها » ... « إن كسبت فيه بعض الحقوق ، فإن عليها أن تنهض فيه بواجبات خطيرة وتبذل ثقاتها » . إن هذا الشعور حمل الشباب ، ودفع فريقاً منهم إلى « أن يسألوا المفكرين وقادة الرأي عما يرون فى واجب مصر بعد إعطاء المعاهدة مع الإنجليز ... وهذا قد جعل كل واحد من المفكرين المسؤولين » يتحدث إليهم فى ذلك حديثاً سريعاً ومرحلاً ، بقدر ما كان يسمح له وقته وعمله وتفكيره السريع فى حياة سريعة « تمر بهم أو يعبرون بها » مرة البرق .. فقد تحدث الدكتور طه حسين نفسه إلى هؤلاء الشباب فيمن تحدث ؛ غير أنه لم يقتنع بكفاية ما تحدث إليهم به ، ولم ير أنه

« قد دلم على ما كان يجب أن يدلهم عليه ، وهادهم إلى ما كان يجب أن يهديهم إليه » . واستقر فى نفسه أن واجب المصريين « فى ذات الثقافة والتعليم بعد الاستقلال أعظم خطراً وأشد تعقيداً » مما تحدث به إليهم « فى ساعة من ليل أو فى ساعة من نهار ، أو فى قاعة من قاعات الجامعة الأميركية ... وأنه يحتاج إلى جهد أشق وتفكير أعمق ويحث أكثر تفصيلاً » ووعد نفسه بأن يبذل هذا الجهد ، وأن يفرغ لهذا البحث ، وأن ينهض بهذا العبء ... ولكنه لم يبنِ هؤلاء الشباب بشيء مما قرره ، لأنه أشق أن تحول ظروف الحياة بينه وبين إنجاز هذا الوعد . وليس أشق عليه من وعد يبذله للشباب ثم لا يستطيع له إنجازاً ... « إن كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » كتب « لإنجاز ذلك الوعد الذى قدمه الأستاذ إلى الشباب الجامعيين ولم يظهرم عليه ... »

إن هذه المقدمة تدل دلالة واضحة على أن الدكتور طه حسين قد شعر بخطورة هذه المباحث حق الشعور ، وقد ر عواقب التسرع والارتجال فيها حق التقدير ... كما تلمن إعلناً صريحاً أنه لم يكتب الكتاب إلا بعد أن بذل « الجهد الأشق » الذى قال بضرورته ، وقام « بالتفكير الأعمق » الذى نوه به ، و « فرغ للبحث لينهض بالعبء » الذى أشار إليه ...

غير أن من ينعم النظر فى الكتاب — بعد مطالعة هذه المقدمة — يشعر بشيء كثير من خيبة الأمل ؛ لأنه لا يجد فيه من الآراء والملاحظات ما يتناسب مع وعود العنوان وتصريحات المقدمة . فالكتاب يتألف فى حقيقة الأمر من مجموعة أحاديث ومقالات قليلة التماسق كثيرة التداخل ، يبدو على جميع أقسامها آثار الارتجال والاستعجال ، ويتخلل معظم أقسامها أنواع شتى من الاستطرادات والاستدراكات ...

فكثيراً ما يقع النظر فى صفحات الكتاب على فكرة صائبة — مبروزة بأسلوب جذاب — غير أنه يلاحظ فى الوقت نفسه كثيراً من المآخذ فى المقدمات التى سبقت تلك الفكرة والملاحظات التى تلها فيبقى حائراً متردداً بين مواقف الاستساغة والاستنكار إن نظرة إجمالية إلى أولى المسائل المشروحة فى الكتاب تكفى للبرهنة على كل ذلك فى وضوح وجلاء

— ١ —

إن المسألة التي يفتح بها الدكتور طه حسين أبحاث كتابه
تتلخص في السؤال التالي :

هل يوجد فرق جوهرى بين العقل المصرى والعقل الأوروبى ؟
والمؤلف يناقش هذه المسألة في أكثر من ثلاثين صفحة
من الكتاب مناقشة مباشرة ثم يعود إليها عدة مرات
— بوسائل شتى — في نحو ثلاثين صفحة أخرى .. وأما الحكم
الذى يصل إليه من أبحاثه ومناقشاته هذه فيتلخص في العبارات
التالية :

« فكل شيء يدل على أنه ليس هناك عقل أوروبى يتناز من
هذا العقل الشرقى الذى يعيش فى مصر رسا جاورها من بلاد
الشرق القريب » (الصفحة : ٢٨)

فهما نبحت وهما نستقص فلن نجد ما يحملنا على أن نقبل
أن بين العقل المصرى والعقل الأوروبى فرقا جوهريا «
(الصفحة : ٢٩)

إننى أشارك الدكتور طه حسين فى هذا الحكم الصريح
مشاركة تامة ... فلقد درست وناقشت هذه المسألة فيما مضى
مراراً بوسائل مختلفة ؛ وانتهيت فى جميع تلك الدراسات
والمناقشات إلى نتيجة مماثلة لهذه النتيجة ، لا بالنسبة إلى المصريين
فحسب ، بل بالنسبة إلى أمم الشرق الأدنى بوجه عام ، والأمة
العربية بوجه خاص ...

ولهذا السبب ، يسرى كل السرور أن أتفق مع المؤلف
فى هذا الحكم اتفاقاً تاماً « ومع هذا يؤلمنى جداً » ألا أستطيع
موافقة على سلسلة الآراء والأحكام التى سردها حول هذه المسألة
وأن أراى مضطراً إلى مخالفته فى معظم المقدمات التى بنى عليها
حكمه هذا ، وفى بعض النتائج التى استخرجها منه ...

أولاً ، يكرر الدكتور طه حسين الحكم الذى ذكرناه آنفاً
عدة مرات — جرياً على عادته العامة — ويعبر عنه فى كل مرة
بشكل جديد ، وكلمات جديدة — حسب أسلوبه الخاص — ؛
غير أنه لا يتقيد — خلال هذا التكرار — بمعانى الكلمات ،
وحدودها « التقيد العلمى » الذى يتطلبه مثل هذه الأبحاث ...
فينزلنى إلى مهاوى التلو والمبالغة انزلاقاً غريباً ، فيبتعد عن

« الحقيقة » التى كان توصل إليها ابتعاداً كبيراً ...

مثلاً ، يسترسل سراً فى الحديث حتى يضيف كلمة الثقافة
إلى كلمة العقل ، فيقول :

« كلا ، ليس بين الشعوب التى نشأت حول بحر الروم وتأثرت به ،
فرق عقلى أو ثقافى ما ... » (الصفحة : ٢٥) .

أفلا يحق لى أن أسأل الأستاذ فى هذا المقام : هل يدعى
— عن جد — أنه لا يوجد « فرق ثقافى ما » بين المصرى ،
والفرنسى ، والسورى ، والإيطالى ؟ إن القول بعدم وجود « فرق
جوهري » بين « العقل المصرى ، والعقل الأوروبى » شئ ،
والقول بأنه لا يوجد بين المصرى والأوروبى « فرق ثقافى ما »
شئ آخر ... فهما آمنت بالقضية الأولى إيماناً عميقاً ، لا يمكننى
أن أسلم بالقضية الثانية أبداً ... وأعتقد اعتقاداً جازماً أن إنكار
وجود « الفرق الثقافى » بين الشعوب التى نشأت حول بحر الروم ،
لا يختلف عن إنكار وجود الشمس فى رابعة النهار ...

كما أرجح أن المؤلف نفسه لم يكتب ذلك عن « تأمل واعتقاد » ،
بل كتب ما كتبه فى هذا المضمار مدفوعاً بدوافع الاستعجال
والارتجال — بالرغم من تصريحات المقدمة — ومجروحاً بتيار الانفاظ
والكلمات . وربما كان من أبرز الأدلة على ذلك ما قاله فى أواخر
الكتاب حيث يختم أبحاث الكتاب بسؤال عام : « أ توجد
ثقافة مصرية ؟ » ويجب على هذا السؤال بالعبارة التالية :

« هى موجودة ، متميزة بخصائصها وأوصافها التى تفرد بها
من غيرها من الثقافات ... » (الصفحة — ٥٢٥)

ولا أراى فى حاجة إلى البرهنة على أن مضمون هذه العبارة ،
ينافض القول الذى أشرنا إليه آنفاً ، مناقضة صريحة ...

ومما يجدر بالملاحظة أن منالاة المؤلف فى تشبيه المصريين
بالأوربيين — وإنكار وجود الفروق بينهما — لا تنحصر
فى هذه القضية وحدها ، بل تمتداه إلى أمور أعرب منها : إذ أننا
نراه يدعى — فى محل آخر من الكتاب — عدم وجود فرق
بينهما من حيث الطبع والمزاج أيضاً . فهو عند ما يصرح بأنه
« لا يخاف على المصريين أن يفنوا فى الأوربيين » يبرهن على
ذلك بقوله :

إلى ذلك سبيلاً ... » (الصفحة ٣٤)

غير أننا نراه في محل آخر من الكتاب ، يتراجع قليلاً عن تعبير « الإسراف » الذي استعمله في هذا المقام ؛ لأنه يقول : « أصبح الأزهر مسرعاً إلى هذه الحضارة ، يدفعه إيمانه إلى شيء يشبه الإسراف إن لم يكن هو الإسراف » (الصفحة ٦١) كما أننا نراه في محل آخر يتنامى كل ذلك فيقول : « إن الأزهر بحكم تاريخه وتقاليد وواجباته الدينية بيثة محافظة تمثل المهد القديم والتفكير القديم أكثر مما تمثل المهد الحديث والتفكير الحديث ... » (الصفحة ٩١)

ثم نراه يضيف إلى ذلك ما يلي : « شيء آخر لا بد من التفكير فيه والطالب له ؛ وهو أن هذا التفكير الأزهرى القديم قد يجعل من المسير على الجبل الأزهرى الحاضر إساعة الوطنية والقومية بمعناها الأوربي الحديث ... » (الصفحة ٩٢)

وفي الأخير عند ما ينتقل إلى بحث المنافسة القائمة بين الأزهر وبين الجامعة لا يتحرج المؤلف من إبداء رأى يناقض رأيه الأول مناقضة صريحة إذ يقول :

« يقتضى أن يمدل الأزهر عدولاً تاماً عما دأب عليه من الانحياز إلى نفسه والتكفوف عليها والانقطاع عن الحياة العامة . وقد يقال : إن الأزهر قد أخذ يترك هذه السيرة ويتصل بالحياة العامة ويأخذ بحظوظ حسنة من الثقافات الحديثة على اختلافها . وهذا صحيح في ظاهره ، لكنه في حقيقة الأمر غير صحيح . فالأزهر ما زال منحازاً إلى نفسه مستمسكاً بهذا الانحياز حريصاً عليه ... » (الصفحة ٤٧٥)

أما لا أود أن أبدي رأياً في الأزهر في هذا المقام ؛ غير أنى أريد أن ألفت الأنظار إلى الاختلافات الموجودة بين هذه الآراء التي صدرت من قلم واحد في موضوع واحد في كتاب واحد ؛ غير أن هناك شيئاً أغرب من كل ذلك أيضاً ؛ فإن المؤلف لا يكتفى بالبرهنة على عدم وجود فرق جوهرى بين العقل المصرى والعقل الأوربي ، بل يحاول أن يبرهن على أن مصر ليست جزءاً من الشرق ، ويسير بين سلسلة آراء وملاحظات — يكتشفها الغموض والتضارب من كل الجهات — ويلجأ الأوربيين الذين

« ... ليس بيننا وبين الأوربيين فرق في الجوهر ولا في الطبع ولا في المزاج ... » (الصفحة ٦٣)

ليس بين المصريين والأوربيين فرق لا في الطبع ولا في المزاج ! لا أدري كيف يستطيع أحد أن يدعى ذلك بصورة جدية ؟ فإن الفروق في الطبع والمزاج من الأمور التي تشاهد على الدوام بين الأمم الأوربية نفسها ، وهي تبدو للعيان بين الانكليزي والفرنسي والألماني والإيطالي ... حتى بين الشمالي والجنوبي من الفرنسيين ، والشرقي والغربي من الألمان ، والسهلي والجبلي من الطليان ، وبين الريني والمدني والصانع والتاجر ، والمتنفذ والعامي من جميع هؤلاء ... فكيف يعقل مع هذا ألا يختلف طبع المصريين ومزاجهم عن طبع الأوربيين ومزاجهم بوجه من الوجوه ؟ إننى أميل إلى الحكم بأن الدكتور طه حسين لم يكتب هذه العبارة أيضاً عن تأمل واقتناع . بل كتبها بدافع الاستعجال وتحت تأثير نوارد الكلمات

إنى لا أكون من الغالين إذا قلت : إن « نزع التسرع في الحكم والإسراف في الكلام » من الزمات المستولية على معظم مباحث كتاب « مستقبل الثقافة في مصر » ، وهذه النزعة هي التي ورطت المؤلف في مآزق غريبة ، وأوقفت مواقف لا تخلو من التناقض في بعض الأحيان

وللبرهنة على ذلك أود أن أستعرض — علاوة على ما ذكرته آنفاً — ما جاء عن الأزهر في الأقسام المختلفة من الكتاب يذكر الأستاذ الدكتور طه حسين الأزهر — في كتابه هذا — أولاً عند ما يبحث عن اتصال مصر بالحضارة الأوربية فيتوسع كثيراً في وصف هذا الاتصال ، لأنه يستبره دليلاً على عدم وجود فرق جوهرى بين العقلية المصرية والعقلية الأوربية إذ يقول : « إننا لا نجد في هذا الاتصال من المشقة والجهد ما كنا نجهده لو أن العقل المصرى مخالف في جوهره وطبيعته للعقل الأوربي » (الصفحة ٣٥)

وعند ما يتطرق المؤلف إلى حالة الأزهر — خلال هذا البحث — يعرضه لنا كمهد مسرف في التجديد إذ يقول حرفياً ما يلي : « كل شيء يدل ، بل كل شيء يصيح بأن الأزهر مسرف في الإسراع بمحو الحديث ، يريد أن يتخفف من القديم ما وجد